

إحياء علوم الدين

ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا فى كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم فى الأصل والفرع والدنيا دار المرضى إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لا يحتذى أو الذى غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيد به بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس . وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل إحداها أن المريض به لا يدرك أنه مريض .

والثانية أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطبائع منه وما بعد الموت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد فى هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة وهو الداء العضال فقد الطبيب فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا فى هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدرُوا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوهم لم يغشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك الذى فى الأسماع وأخف على الطبائع فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائبا أهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة إسرافه فى الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال وكذلك المصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس

استعظاما لذنوبه التى سبقت يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع فى قبول التوبة فيتوب فأما معالجة المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر أسباب الرجاء فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء فإذا فساد الأطباء هى المعضلة الزبء التى لا تقبل الدواء أصلا .

فإن قلت فاذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير إلى الأنواع النافعة فى حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهى أربعة أنواع .

الأول أن يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار